

«يكون... حيث نكون»... حملة إعلامية ثقافية تطلقها جمعية «قاف» لتخليد الذاكرة الحية لقائد الانتصارين

حين نرمي بذور التصدي نحصد بيادر نصر وتنتبت في ساحة المواجهة مليون رصاصه عماد مغنية... ذاكرة حياة عمّدت بالشهادة

عبر حمدان

أن تكتب عن عماد مغنية، كأنك تحاول إمساك خيط رفيع قد يصل بك إلى مشارف المجد. لكن فكرة استلال القلم ليرتحل حبرك في ذاكرة التاريخ المقاوم الذي لم تنته فصول تدوينه بعد، فيها من المخاطرة ما يكفي لتفكر كثيراً وتقرأ أكثر كل ما يمكن أن يطاله عقق ويلاص قلبك من قصاصات ورقية حاكّت سيرته ومسيرته، ويبقى في جعبة الزمن بماضيه وحاضره كماً هائلاً من السطور التي لم ولن تخرج إلى العلن. ربما لأن ما يختزنه التراب من حكايا يتخطى فرضية النشر ويلقي إمكانية الإبداع الإنشائي، وربما لأن فعل المقاومة يقارب القداسة ليصبح سرّاً متصلاً بلحظة الانبعاث الأخير.

عماد المقاومة، قائد الانتصارين، الحاج رضوان، تسميات تختصر ذاكرة حياة عمّدت بالشهادة لتزهّر في ساحة المواجهة مليون رصاصه. تكبر الساحة إلى ما خلف الحدود التي فرضها المستعمر، وكلما ارتفعت راية الحق نشعر أننا نتنشق هواء فلسطين بعيداً عن جدار العزل ورائحة البترول المتصهين والبيانات الاممية التي لا تحترف إلا القلق.

يقترن المبدأ بلحظة الولادة، كمن يخرج من رحم الامومة إلى رحم الحياة، بيده كتاب السموات ليطلو آيات العدالة رحمة بالمظلومين على امتداد الجرح من المحيط إلى الخليج. وكأنه يرسم وطناً لا يمكنه سلخه عن محيطه وقضاياه المحقة. يسكن ملامح مزارعي التبغ وعبق الزعتر البرّي، ويشرق بين سنابل السهل الواسع. لم ترقبه العيون، فهو كالضوء المشدّي يخترق العتم ويضي وقوفاً. كان الضوء الذي لا يأسره إطار الصورة. فالأفعال تتفوق على الأقوال، والنهج المقاوم يتعارض والاستعراض.

ثمانى سنوات من عمر الرحيل إلى المدى الأرحب، حيث تصبح الابتسامه مواسم عزّ ولم تزل الشعلة متقددة. على الثغور يعبر طيفه ليمسح جباهه ابتائه فتصبح تلك الثغور روضة من رياض الجنان، حيث لا يلمس صقيع الشتاء قلوبهم ولا يحرقهم الصيف بقبظه. هم أبناء عماد وتلامذته وروحه، تقيم في قبضاتهم فيرمون العدو بنار من سجّل.

وللمقاومة وجهها الثقافي أيضاً، لذلك اختارت جمعية «قاف» الثقافية أن تحفر ذاكرة الزمن المُعمّد بالدماء من وحى الجهاد وتسميه العماد... في سعي جذي لتخليد الذاكرة الحية للشهيد عماد مغنية مع أشخاص عاشوا معه تفاصيل حياة عامرة بالمجد والإباء وزاخرة بالتضحيات وحافلة بالانتصارات، مملطة حملتها الإعلامية تحت شعار «يكون... حيث نكون».

خيط الصوف وعبق الليمون

أصدرت جمعية «قاف» عام 2015 كتاباً مصوراً بثلاث لغات: العربية والإنكليزية والفارسية، يوثق لمحات من حياة القائد الشهيد عماد مغنية ضمن فيه صوراً حقيقية وشهادات لمن عاشوا معه معظم مراحل حياته. ولعل الأبرز تمثل بأقوال والدته التي باتت مثلاً يُحتذى به من جِراء إيمانها المترسخ بالقضية التي لأجلها عاش عماد مغنية وبقي حيا فيها بعد استشهاده. صور من المقلوبة بما تختزنه من براءة وأمال كبيرة خرجت للنور بعد الغياب الجسدي. إنه الطفل الذي أنصر معالم المدينة قبيل اشتعالها ورفع المتاريس الرملية بين مناطقه. فراه مسكاً بإكليل عُلق على تمثال الشهداء في الساحة البيروتية التي كانت لكل الناس، ونراه في «جرح العيد» وعلى كورنيش المنارة وفي كل مكان يُشكّل مساحة لمسحات الأطفال. هو لا يختلف عن أقرانه في تلك المرحلة، كأي طفل ينتظر ثياب العيد وتقول الحاجة أم عماد: «... كنت أحيك ثيابه بنفسي، أذكر مرة أنني كنت أعد لعماد وفؤاد ثياب العيد. كنت أحيك لهما كثرتين صوفيتين، وكان قد بقي جزء من كنزة عماد لم أكمله بعد، عشية العيد، أذكر أنني سهرت الليل بطوله لأنجز له الكنزة».

أنهى دراسته الابتدائية في مدرسة «الصادق العامية» عام 1973 ناجحاً في جميع المواد المدرسية المقررة للتعليم الابتدائي. فكانت خطوته الأولى نحو آفاق أوسع، وبدأ يميل أكثر إلى الالتزام الديني ويناضل بشكل غير معلن لخدمة معتقداته. ولرفيقه الشيخ حسين غبريس تعقيب على هذا النضال إذ يقول: «انطلقنا في العمل في المسجد من خلال تأسيس حركة سنيهاً أتذاك الشباب المؤمن في طبرديا، كان عماد عماد هذه الحركة. اقترح يوحنا أن نقوم بطلاء المسجد ليعطيه روحاً. لم يكن المال متوفراً معنا، وكنا نعرف حينذاك أن أحداً لن يتجاوب إذا ما طلبنا مساعدة. حين اترقنا لم تكن بعد قد وجدنا حلاً لهذه المشكلة. وبعد أربعة أيام جاءنا عماد بالطلاء وعنده، وطلب منا مساعدته في إنجاز المهمة! لم يفصح عن مصدر المال، لكننا عرفنا لاحقاً أنه عمل في قطاف الليمون لمدة أربعة أيام ليجمع ثمن الطلاء، وهو عمل مضمّن لطفل في مثل سنه!».

بدأ هذا الطفل متمسكاً بقناعاته متطلعاً إلى ما بعد القطاف ليژهر فكراً يافعاً وقادراً على الثورة المنبثقة من الذات الإنسانية، لعلّه مزيج إيماني بالله والقضية.

فلسطين والخيط القطني

لم تكن صورة المقاومة بهيئتها الحالية قد تشكلت حين قرأ الشاب الفتى حكاية فلسطين وثورتها. ومما ذكره مدير مركز «أمان» الدكتور أنيس النقاش حول تلك المرحلة: «أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، تقدم إلى أحد مكاتب الثورة الفلسطينية شاب هو عماد مغنية، كنت عضواً في حركة فتح، وعزف عن نفسه بكونه عضواً في مجموعة مؤمنة. وهم بحاجة إلى التدريب على السلاح لأنهم مقتنعون بالجهاد من أجل فلسطين (...). لاحقاً تقررت إقامة معسكر في منطقة الدامور لتدريب مجموعات لبنانية متنوعة، واستوعب مجموعات كثيرة بينها



في يوم من الأيام. لقد سجلت هذه السنة تحولاً كبيراً في عمليات المقاومة ضد العدو الصهيوني: انطلاق العمليات الاستشهادية.

وتعتبر عملية الاستشهادي أحمد قصير باكورة العمليات النوعية للمقاومة، فقد أدت إلى تدمير مقر الحاكم العسكري في مدينة صور بتاريخ 1982/11/11. سجلت هذه العملية اللحظة الأولى لولادة «المقاومة الإسلامية» في لبنان. وقد اعتبر أوري أوري، قائد المنطقة الشمالية في جيش الاحتلال أنها «كانت الصدمة الأولى، والأقوى للجيش الإسرائيلي في لبنان». ومع عملية فاتح عهد الاستشهاديين، بدأ عصر مهوّر بصممة عماد مغنية. هذا العصر الذي رسم ملامح المرحلة بخيوطها العسكري المتقن وزرع أرض الجنوب نارا ونورا قوامه الشهادة. وتوالت الاتهامات الأميركية، إذ اعتبر ميانو ليفين، كبير محللي الشأن الأمني في «معهد واشنطن»، أن مغنية مسؤول عن تخجير محطة وكالة الاستخبارات الأميركية «CIA» في بيروت، وعن اختطاف وليام باكلي معوث الاستخبارات الأميركية بُعيد الانفجار.

لم يكن عماد مغنية أي اتهام، فبعد ستة على تنفيذ عملية الاستشهادي أحمد قصير، وانتقال مقر قيادة جيش الاحتلال إلى مكان آخر. هاجم استشهادي بواسطة سيارة «بيك آب» مقر الاستخبارات «الإسرائيلية» في صور، حاول الحراس الصهاينة إيقافه، فلم يمثل واندفع بألبته ليستقر أمام المبنى وتتفجر. وقد اعترف كيان العدو حينذاك بمقتل 29 من جنوده.

كان مغنية يزداد صلابه كلما أوغل الجرح في وجدانه وقلبه، وهو رأى أخاد الأصغر جهاد مسجّي أمامه تُصَف مدفعي على منزل السيد محمد حسين فضل الله في منطقة بئر العبد في الضاحية الجنوبية لبيروت، وعابن استشهاد الشيخ راغب حرب قبل ذلك. كان شيخ المجاهدين يرى في عماد شاباً استثنائياً. كان معجباً بحركته الخفيفة، والذكية، وكان يرى فيه أملاً واعداً.

حزب الله وظلّ العماد

مع الإعلان عن ولادة حزب الله برسالته المفتوحة إلى المستضعفين في الأرض، أصبح لمغنية مرجعية علنية، ورغم ما أثير من جدل حول هذا التنظيم في لبنان حينذاك، إلا أنه رسخ حضوره بشكل فاعل على مستوى العالم العربي. حينذاك اختفى عماد مغنية، ومع اختفائه صار أكثر قدرة على التحرك داخل منظومة المقاومة، وأكثر فاعلية في تنظيم العمل العسكري، وتدعيمه، كلما أوغل في الاختفاء، كلما ظهر أكثر حضوراً في الميدان.

أدت العمليات المتلاحقة في المناطق كافة إلى انسحاب الصهاينة (آب 1985) إلى المنطقة الحدودية، وإنشاء ما عُرف بالحزام الأمني. كان هذا الانسحاب أولى تبايشير هزيمة «إسرائيل» التي كان يراها عماد واقعة لا محال. كان العدو مدركاً أن رجل الظل يسكن في التفاصيل، ويعرف مسار الرصاصه جيدا، ويعرف كيف يوظف إنجازاته في سياق إعلامي يزعزع ثقة العدو بقدرته على التحكم بالحرب الطويلة معه. إذ إنه كان يعمل على تصوير كل خطوات العمليات العسكرية وتوثيقها لتصبح مادة حشوية مساهمة في تحقيق التوازن المطلوب. وكان الحاج رضوان قادراً على رفع سقف التفاوض في مختلف صفقات التبادل على جتامين رفاق السلاح، ويشهد عبورهم من مكان قريب من دون أن تلمح العين.

لم يقطع مغنية علاقاته مع المقاومين الفلسطينيين الذي عرفهم في بدايات العمل المقاوم. وكان يتقصى أخبار الداخل الفلسطيني على الدوام ليعرف مجريات الميدان ومتطلباته بهدف تعبئة المخيمات ودعمها بالإمكانات اللازمة، وتدريب المقاومين ومدهم بالخبرات.

لعماد المقاومة تواضع الجبر وكبرياء الدم

سيلان الحبر والدم لدى أهل الحفّة والاستهتار والصدفة محض شغل، فيسيل دمّ في حادث، أو في معركة، أو في حرب تتقاتل فيها الجيوش كمجرّد موظفين عند أسياح القرار في الحرب. كما يسيل الحبر نهاراً جارياً عند الكنية وشعراء البلاط أو الكنيسة من عرق أقاليمهم، فيصير الحبر عرقاً إنمّا بلا جبين. عند هؤلاء الحبر والدم يكادان يتساويان، لكن الحبر يتقدم على الدم في سيلانه، لأنه مسوغ ومصنّع ذرائع، وآلة تزيين ليصير الباطل حقاً والشرّ خيراً، ولأنه السند لجعل حروب العيب والعدوان ذات قضية، وشعر الهذيان وفاء ووجدان وهوية. إلا عندما يصير الدم فضيحة النفاق ويكشف خواء الأعداء، فيصير شاهد التاريخ على التزوير، ويكون عندئذ دم مجزرة الأبرياء أو دم الحاكم أو الوزير.

عند أهل العقيدة، ليس للدم مكافئ ولا سعر فهو الأعلى، لكنه يرخس لأجلها فيسيل بلا استئذان. وعندهم العقيدة كلمة سال الحبر عندياً صعباً في ممرّات بلوغها مراتب التاصيل، حفّخر في صدور الفكر الإنساني وعزّز بحار الفلسفة ودخل أنفاق التاريخ، وأضاء عتمة كهوف البحث الإنساني المتعب بتعديل الحقيقة، فيكاد يستوي الدم والحبر منعة وقيمة. ومثلما يسيلان باستحقاق بحجم ما يمثّلان في العقيدة ولأجلها، يسيلان بسلاسة بهديها، لكن الحبر يكاد يتقدم على الدم لأنه أبقي لهدى أجيال قادمة إلى طريق بذل الدماء، ليتواصل مسير مشاعل النور. إلا عندما يصير الدم كلاماً ناطقاً، ويكون حبر حقيقة أبدية خالدة، فتلك شهادة القادة.

يتشابه في الشكل إذا مستوى انسياب الدم والحبر، وقمئيتيها ومكانتيهما، وعلينا انتظار لحظة تفوق الدم على الحبر، وقياس الانسياب وسياقه ومصدر الفوران حتى ننتبين أهل العقيدة من أهل العقيدة.

عماد مغنية، القائد العسكري والمقاوم المبدع، شاب اتقن علاقته بالقاتل حتى مستوى أعلى رتبة. فكان العماد وكان الشهيد. والعماد الشهيد هنا حبر متدفق في كتاب التحرير، ومراكمة متصلة لحقيقة متسلسلة ومتناصلة عما يقدر عليه الفقراء والضعفاء، في نسيج كنزة الحرية في برد شتاء الظلم والقر. دمهم حبر لا ينضب، يفضح زيف دم وحبر يذعيان وصلاب ليليل الحقيقة، وليلى تحدد بصوتها الشجي لعماد كي يغفو على تلة شلعبون في بنت جبيل، أو فوق تلال مارون وبارون، أو في غور الأرزن أو على كتبان الرمل في سبئاء، أو في مينا الحديدة والخروطوم، وعلى مشارف الجولان.

لشهادته العماد حبر متواضع يستحق أن ينساب خجلاً ومتواضعا مطرق الراس، يلقي التحية بخفر، حتى ينتهي مرور موكب الشهادة بجلال ومهابة.

صفحتان من صحيفة، تختصران بعضاً من صفحات كتاب، والكتاب الأصلي حياة عماد، لا تختصران ما يجب أن يقال، فما هو إلا حبر عن دم صار حبراً لا يجف ولا تجف منابيعه ولا جفّت مآقيها. إلقاء التحية في الذكرى أمام ضريح الشهيد قد يفينا بعضاً من حقنا في قول كلمة الحق بحقه. عماد مغنية، سابعيك مدى اتساع الحياة على مسيرة أنت فيها البطل، حتى تجف العقل، وستبقى تلك الابتسامه الراضية منذ أربعين سنة وخلالها وعلى امتداد أيامها، وأنت بعينيك الجولتين تكف شيفرات القضية لتضع رموز معركة قررت أن تخوضها حتى الفاتمة، والتمالة شهادة بين نصرين، نصر تصنعه حياً، ونصر تضع أسسه وتشهده شهيداً.

يا لتواضع الحبر وكبرياء الدم، حبر حقيقة أزلية.

ناصر قنديل

أن أقف مسرعة ففعلت، وكنت ما زلت في حيرة من أمري، فرائيته بحفر بسرعة ويدفن مجموعة من الأوراق ثم طلب مني الجلوس مكاني. ما أن اتهمت جلوسي حتى دخلت فرقة من الشرطة وفتشوا المكان. عند خروجهم، طلبت تفسيراً لما يجري، فقال لي الشيخ مازحاً هذا من أفعال ابنك!..

وكانه أدرك ميكراً خطر ما يسفونه «الاعتدال العربي»، وسعى إلى نشر ثقافة المقاومة حيث يسيل المال القطني خدمة للمشروع الصهيوني.

أول الغيث... بصممة العماد

كانت عملية الاستشهادي أحمد قصير العملية الاستشهادية النوعية الأولى للمقاومة من «ابتكار» القائد عماد مغنية. إذ خطط وأشرّف على تنفيذها. وقد أسفرت عن مقتل 76 ضابطاً وجندياً صهيونياً. ويؤكد نائب الأمين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم أن عماد مغنية أعد هذه العملية بتفاصيلها، وتابعها بدقائقتها، وحرص على تصويرها من أجل أن تكون هناك وثيقة تعرض

